AL-MANHĀJ AL-ṢŪFĪ WA DAWRUHU FĪ ISLĀḤ ĀLIYYĀT AL-TA`ĀMUL MA`A KITĀB ALLĀH TA`ĀLĀ

(المنهاج الصوفي ودوره في إصلاح آليات التعامل مع كتاب الله تعالى)

Sayyed Abdul Hamid Sayyed Ali al-Mahdaly al-Ahdal [**] ***Syed Mohammad Hilmi Syed Abdul Rahman*** [*]

[*] Fakulti Usuluddin. Universiti Islam Sultan Sharif Ali (UNISSA). Bandar Seri Begawan. Brunei Darussalam

[**]. Akademi Pengajian Islam. Universiti Malaya. 50603. Kuala Lumpur. Malaysia.

Email: [*]smhilmi@um.edu.my

Khulasah

Makalah ini cuba sedaya upaya mendedahkan hakikat al-Islah menurut Islam dengan penegasan bahawa ia mestilah bertitik tolak daripada al-Quran yang di realisasikan oleh Rasulullah SAW dalam kehidupan realiti melalui akhlak agung beliau. Kemudian diikuti oleh para sahabat dengan menjadikannya sebagai manhaj ilmu dalam menetapkan fiqh al-Kitab dan al-Sunnah. Ia juga dijadikan asas untuk memandu masyarakat agar patuh kepada kebenaran. Lantaran itu mereka bertungkus lumus menggangkat agama mulia ini dan mereka yakin bahawa kemuliaan itu hanya bagi Allah dan orang beriman yang membenarkan janji mereka kepada Allah sehingga mereka berjaya memimpin urusan dunia dan akhirat degan sebaiknya. Kesemua itu berkat daripada didikan rabbani yang diberi tumpuan utama dalam aspek pengislahan masyarakat bagi mengubah diri manusia yang susulannya akan menyebabkan berlakunya perubahan kepada keseluruhan hidup manusia. Segala kerosakan yang berlaku dalam masyarakat Islam di sepanjang zaman sehingga hari ini adalah berpunca daripada

kerosakan hati yang menegah manusia daripada memahami rahsia ketuhanan yang menjadi jambatan bagi segala kemajuan manusia didunia dan akhirat. Justeru para ulama yang berusaha untuk mengislahkan masyarakat telah mengambil langkah bijak untuk memanfaatkan athar al-Salaf al-Salih dalam mengasaskan manhaj ilmu yang lengkap dalam membersihkan hati dan menjilahkannya. Manhaj ulama sufi yang dicedok daripada nas-nas syarak yang terkandung di dalamnya segala kaedah dan prinsip ketuhanan ialah satu-satunya manhaj yang mampu menyahut tuntutan jiwa manusia. Pengabaian terhadap manhaj ini boleh menjerumuskan masa depan seluruh manusia ke arah kebinasaan.

Kata kunci: Tasawuf, Islah masyarakat, manhaj sufi, al-Qur'an

Abstract

The article tries to highlight the nature of al-Islah based on Islamic point of view to the assertion that it must be the starting point of the Qur'an, realized by the Prophet Muhammad p.b.u.h. in the reality of life through his great character. Then it was followed by his companions by utilizing it as the methodology of science in determining fiqh al-Kitab and Sunnah. It is also used as a basis to guide the people to obey the truth. Thus they struggled to raise this noble religion and they are confident that the glory belongs only to Allah and the believers who keep their promise to God that they successfully lead the worldly affairs as well as the hereafter. All of it was the results of the divinity tutelage prominently in the reform of society to transform human beings that follow-up would result in changes to the entire human life. Any damage occurring in the Muslim community throughout the ages until today is due to heart damage that prevents them to understand the divine secrets as a bridge for all human growth in this world and hereafter. Hence the Muslims scholars who give efforts to enhance community have taken the right step to take advantage

of athar al-Salaf al-Salih in establishing a comprehensive methodology of knowledge in purify and boost the heart. Sufi scholar methodology inferred from the texts of legislation contained in it all the methods and principles of divinity is the only methodology that is able to respond to the demands of the human soul. Neglect of this methodology can bring the whole future of mankind toward destruction.

Keywords: Tasawwuf, reform of society, Sufi scholar methodology, al-Qur'an

المقدمة

فإن عملية الإصلاح في الإسلام تتسم بطابع الاستمرارية عبر الزمان والمكان[1]؛ إذ أن مهمة الرسل والأنبياء – عليهم السلام – وورثتهم: هي الإصلاح ، فقد قال الله تعالى على لسان سيدنا شعيب عليه السلام عندما أصر قومه على مخالفته: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُ﴾ [سورة هود: ٨٨]. وهو منهج قرآني مفروض على الأمة اتباعه إلى يوم القيامة، والتهاون عنه يؤدي إلى الهلاك —كما أشار إليه قوله تعالى – : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ [سورة هود: ١١٧]. وقد أناط الله تعالى مغفرته ورحمته بمن يقوم بالإصلاح ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [سورة النساء: ١٢٩]. وعطف التقوى على الإصلاح هنا

[1]. اقرأ: رجال الفكر والدعوة في الإسلام للشيخ أبي الحسن الندوي، ج١، ص٢٢. والإصلاح الإداري للدكتور عبد الرحمن الضحيان، ص٥.

مؤشر قوي على ضرورة بناء الإصلاح في جميع مجالات الحياة على أساس ((**التقوى**)) ، فبدونه لن يقوم أي بناء، ولن يستقيم أي توجه.

ومن هذا المنطلق بشر النبي صلى الله عليه وسلم بالفلاح لمن أخذ هذه المهمة السماوية على عاتقه وقام بها خير قيام، وخاصة في زمن يشيع فيه الجهل بالدين ويسود فيه الظلم وتطغى فيه الهيمنة المادية على حياة الناس وتمردوا على منهج الله تعالى، فقال: ((**بدأ الإسلام غريبا، ثم يعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء، قيل: يا رسول الله، ومن الغرباء؟ قال: الذين يُصْلِحُون إذا فسد الناس**))[٢].

وقد أصبح الفساد في هذا العصر ضاربا بجذوره في أغلب المجتمعات الإسلامية والعربية، وتسلل إلى جميع المجالات المختلفة تظهر آثار ذلك واضحا على حياتنا الاجتماعية، والسياسية، والتربوية والتعليمية، والاقتصادية، والإعلامية، وغيرها. وهذا الفساد في حد ذاته ليس عارضا، وإنما هو نتيجة لأسباب ومقدمات تسربت إلى جسد الأمة الإسلامية فأنهكته، وأثرت فيه تأثيرا بالغا. فعلى المصلحين في هذه الأمة أن يقفوا على أساب هذا الفساد؛ ليتمكنوا من مواجهته وحربه، وأن يرصدوا خطوات المفسدين؛ حتى يجنبوا المجتمع خطرهم وشرهم بكل وسيلة ممكنة[٣].

---

[٢]. أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ج٢٧، ص٢٣٧، رقم الحديث: ١٦٦٩٠. والإمام الآجري في كتاب الغرباء، ص ٢٣، رقم الحديث: ١.

[٣]. انظر: منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع للدكتور السيد محمد يوسف، ص ٢٥.

وأسباب هذا الفساد كثيرة منها[٤]:

١. انحراف كثير من المسلمين عن الفهم الصحيح لدين الإسلام.
٢. سوء فقه كثير من المسلمين للخلافة وضعف كفاءة الخلفاء.
٣. الخروج عن منهج الإسلام في نظام الحياة.
٤. انقسام المسلمين وتفرقهم إلى فرق متناحرة.
٥. موت روح الجهاد وضعف أدواته.
٦. الجمود والتخلي عن الاجتهاد.
٧. الإقبال على متع الدنيا ونسيان الآخرة.
٨. انتشار البدع والتبديع والضلال والتضليل.
٩. عجز أولياء الأمور عن تربية أولادهم.
١٠. التخلي عن التقدم العلمي وترك الأعداء يسيطرون فيه.
١١. **الفراغ الروحي**.

وفي الحقيقة أن هذه الأسباب وغيرها راجعة إلى سبب واحد رئيسي، وهو ((**الفراغ الروحي**)) الذي يحرك من الوراء بقوة: هذه الظواهرَ السلبية المنتشرة في المجتمع، ولا يعالج هذه المعضلة ولا يصلحها إلا الالتزام بمنهج الله تعالى؛ التزاما صحيحا مبنيا على العلم الصحيح والعمل الصالح والتفاني بإخلاص في خدمة هذا الدين العظيم. وهذا الفراغ هو **أم الكوارث كلها**[٥]. ولهذا ترى ديننا الحنيف يوجه اهتمامه –

[٤]. انظر: التراجع الحضاري في العالم الإسلامي للدكتورعلي عبد الحليم محمود، ص٤٥٠.
[٥]. انظر: منهج القرآن في إصلاح المجتمع للدكتور محمد السيد يوسف، ص٢٧.

بالدرجة الأولى – لإصلاح القلوب، ويبين للإنسان أن صلاحهم متوقف على **إصلاح قلوبهم**، وشفائهم من الأمراض الخفية والعلل الكامنة[٦]. و((**الإصلاح**)) في العرف التربوي الصوفي الرباني هو ((**التزكية**)) أو الإحسان، أو فقه الباطن الذي يعد ركنا ركينا، وشعبة عظيمة من شعب الإسلام، وهو من أكبر المهام الخطيرة التي أنيطت بها رسالة النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد جاء ذلك في غير موضع من القرآن الكريم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الجمعة: ٢]، وقد جعل مناط الفلاح في العناية بها، ومناط الخيبة والخسران في إهمالها، فقال – بعد أطول قسم في القرآن كله[٧] – : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا • وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس: ٩-١٠]. والله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز عندما يقسم بشيء، فإنما يريد من وراء ذلك أن ينبهنا إلى موقف بالغ الخطورة، حتى لا نشقى به على طول الحياة وعرضها، فلقد أعذر من أنذر، ولات ساعة مندم، ولا تلوموا إلا أنفسكم.

فليس أمامنا خيار — إن أردنا السلامة في الدين والدنيا والآخرة – إلا بالعودة إلى رحاب كتاب الله – تعالى –الذي يهدي للتي هي أقوم،

---

[٦]. انظر: حقائق عن التصوف لسيدي الحبيب عبد القادر عيسى، ص٢٨.

[٧]. انظر : التزكية للأستذ المعاز، ١٣.

والتمسك بسنة نبينا وحبيبنا سيدنا محمد – صلى الله عليه وعلى آله وسلم –، الذي جاء ليبين أسرار كتاب ربه عز وجل، مع **ضرورة الأخذ بعين الاعتبار: أن الأصل في التعامل مع الدستور القرآني فقها وتفسيرا، علما وعملا: هو السير على منهج سلفنا الصالح رضوان الله عليهم، المشهود لهم بالخيرية** كما ثبت في الصحاح من غير وجه أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: ((**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبقُ شهادةُ أحدهم يمينَه، ويمينُه شهادتَه**))[٨]. وكذلك يدخل في هذه القرون الخيرة كل مَن تبعهم – عن علم وعمل وحال – بإحسان إلى يوم الدين؛ وهم المعروفون بـ ((**أهل السنة والجماعة**)).

ومما لا يعترينا أي شك في أن السر في إثبات ((**الخيرية**)) لأهل تلك القرون الثلاثة من المسلمين أنهم يمثلون الحلقات القريبة الأولى من السلسلة الموصولة بينبوع النبوة وتعاليم الرسالة، **فالحلقة الأولى** منها مظهر لذلك الرعيل الأول الذي تلقى أفراده عقائد الإسلام ومبادئه من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مباشرة، واستقرت

[٨]. أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، ص٦٦٨، رقم الحديث: ٢٦٥٢، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أُشهِدَ، والإمام مسلم في صحيحه، ج٤، ص١٩٦٣، رقم الحديث: ٢٥٣٣، كتاب فضائل الصحابة، من حديث سيدنا عبد الله بن مسعود مرفوعا.

أحكامه وآدابه الربانية في عقولهم وأفئدتهم صافية عن شوائب الابتداع وكدورات الوساوس والأوهام.

والحلقة الثانية منها تمثل التابعين الذين غمرهم ضياء النبوة باتباعهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والاتباع بهديهم، والنيل من إشراقاتهم التي اكتسبوها من رؤية هذا النبي العظيم – عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم –، ومجالسته والتأثر بوصاياه ونصائحه.

أما الحلقة الثالثة وهي تمثل تابعي التابعين، فقد كان إيذانا بنهاية مرحلة الصفاء الفكري وخلوص الفطرة الإسلامية من الشوائب الدخيلة حيث بدأ في هذا الوقت ظهور البدع ظهورا فاشيا – كما أشارت إليه تتمة حديث الخيرية –. وتتابعت الفرق الضالة تشذ عن صراط تلك العصور الثلاثة، كل قرقة تشق لنفسها عن ذلك الصراط العريض سبيلا متعرجا تقف على فمه وتدعو إليه ؛ مخالفة بذلك قول الله عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وظلت رياح الأهواء والبدع والضلالات، تتكاثر وتتسع بعد ذلك، من عصر إلى آخر، إلى يومنا هذا. مصداقه قول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيما رواه الإمام البخاري، عن سيدنا أنس بن مالك – رضي

الله عنه-: ((**لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده أشر منه حتى تلقوا ربكم**))[٩].

وهذه الحقيقة التي لا ريب فيها تدعونا إلى أن نربط عقولنا وسلوكنا برابطة الولاء للسلف الصالح، والاقتداء بهم[١٠] في سلوكهم، والاستفادة من منهجهم الجامع بين الشريعة والحقيقة، الظاهر والباطن، الدنيا والآخرة، القادر على نفي تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين عن ساحة كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

ولم نجد _ بعد انقضاء العصور المشهود لها بالخيرية _ منهجا تتحقق فيه الكفاءة المنشودة لإصلاح آليات التعامل مع كتاب الله تعالى، إلا ذلك **المنهج الصوفي الرباني** الذي ترنو إليه – على الدوام – جباه العلماء الربانيين الذين جمعوا بين العلم والعمل والإخلاص، واستمدوا من نوره في إصلاح الأمة، وسار عليه المصلحون في الإرشاد والتوجيه عبر العصور؛ فانتشر في أرجاء المعمورة نورُ الإسلام والإيمان والإحسان بفضل هذا **المنهج العملي الواقعي الرباني**، لا بفضل قوة السيف والإكراه، كما يدعيه أعداء الإسلام والإنسانية عن جهل وحسد وطغيان.

خطورة غياب المنهج الصوفي عن ساحة العمل الإصلاحي

[٩]. انظر: فتح البارئ، ج١٣، ص٢٢، رقم الحديث: ٧٠٦٨، كتاب الفتن، باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه.

[١٠]. انظر: السلفية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص١٠.

إن غياب هذا المنهج عن ساحة العمل الإسلامي عموما، وفي التعامل مع كتاب الله تعالى خصوصا، جعل الأمة الإسلامية ممزقة من الداخل إلى فرق متناحرة متقاتلة متخاصمة، كل يرى نفسه على صواب، والآخر على ضلال مبين بدون حجة وبرهان؛ بل إن كل واحد من هؤلاء المنحرفين، يسوغ لنفسه ما ينصر انحرافه وضلاله بتأويلات باطلة من القرآن الكريم؛ فنتج عن ذلك: ظهور الآراء والاتجاهات المجانبة للحق في فهم كتاب الله تعالى؛ وكل ذلك سببه الرئيس: الخراب الداخلي النفسي؛ فكان المنهج الصوفي السني – بعد إتقان المنهج العلمي النظري في التعامل مع القرآن الكريم وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم – هو الضمان الوحيد – بشهادة التاريخ والواقع المعاش – لإنقاذ أمتنا من الموقف المتأرجح والتشقق الداخلي، وإرجاعها إلى الرشد والإنصاف التام القادر على نصرة الحق؛ لأن اهتمامه منصب على الإصلاح الداخلي قبل الخارجي بفضل توجيه من القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [سورة الرعد: ١١]؛ إذ التغيير والإصلاح الداخلي المفهوم من هذه الآية الكريمة، يحتل الأولوية والصدارة قبل كل شيئ، وقد أكده ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يقول في حديثه الصحيح: ((**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد**

الجسد كله، ألا وهي القلب))[١١]، ومن هنا تظهر جليا أهمية المنهج الصوفي في الإصلاح والتغيير.

التصوف حقيقته ووظيفته الأساسية

لقد ضاعت الجهود العلمية في محاولتها للتعرف على الأصالة الاشتقاقية لكلمة التصوف وفشلت في تحديد انتمائها اللغوي، إلا أنها قد توصلت في النهاية إلى وضع تعريفات لعلم التصوف ؛ بناء على شيوع هذه الكلمة في الأوساط الإسلامية العامة كـ ((**رمز للعزوف عن الدنيا والإقبال على الآخرة**)).

وعلى الرغم من تعدد العبارات التي تتجه الوجهة الصحيحة للتعبير عن حقيقة التصوف غير أنها لا تخرج من دائرة المعنى الرمزي والإشاري الذي لا يخضع – بحال من الأحوال – للموازين اللغوية ؛ وأجمع التعريفات لهذا المصطلح ما قاله الإمام أبو بكر الكتاني المتوفى سنة ٣٢٢هـ، من أن التصوف صفاء ومشاهدة.

وهذه العبارة على وجازتها – كما قال الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود[١٢] – قد كوّنت في وحدة متكاملة عنصرين لتعريف التصوف. **أحدهما : الوسيلة، وهي الصفاء.والثاني : الغاية، وهي**

---

[١١]. متفق عليه.

[١٢]. راجع : قضية التصوف : المنقذ من الضلال، ص ٣٨ – ٤٧.

المشاهدة.والتصوف من هذا التعريف طريق وغاية. وطريقه يتضمن نواحي كثيرة تشير إليها تسميتها نفسها ، ولعل ذلك من الأسرار التي كانت السبب في هذه التسمية، واتخاذها عنوانا على هذه الطائفة.

لقد قال جماعة :إنما سميت ((صوفية))؛ لصفاء أسرارها، ونقاء آثارها. وقال الشيخ بشر بن الحارث : الصوفي من صفا قلبه لله. وقال بعضهم: الصوفي من صفت لله معاملته، وصفت من الله عز وجل كرامته. وهؤلاء يهدفون إلى أن كلمة: ((الصوفية)) إنما تشير إلى الصفاء. وهذه الإشارة لا تخضع لمقاييس اللغة، وما دامت ((إشارة))، فإنه من التعسف أن يجادل إنسان في أمر انسجامها مع اللغة، وعدم انسجامها.

ويقول قوم: إنهم إنما سموا: ((صوفية))؛ لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل، بارتفاع هممهم إليه، وإقبالهم بقلوبهم عليه، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه. وهؤلاء إنما يعبرون عن إشارة الصوفية إلى الصف؛ لكونهم في الصف الأول في العمل على الوصول إلى الله تعالى والجهاد في سبيله. أما إشارة الكلمة إلى ((أهل الصفة))، الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما تشير إلى أوصافهم من العبادة، والتهجد، وعدم الطمع في الدنيا، واستعدادهم الدائم للجهاد في سبيل الله. وتشير الكلمة للصفة: أي الصفة الكريمة، التي لا يتعلق فيها القلب بالمادة، وإنما يتعلق بالله تعالى.

وكل ذلك إنما هو حديث عن الوسائل. على أن هذه الوسائل التي تشير إليها الكلمة لها وسائل أخر. هذه الوسائل الأخر منها ما يعبرون عنه بقولهم: ((لا يَمِلِكُ ولا يُمَلَكُ)). ويعنون بذلك أنه ((لا يسترقه الطمع)). وهذه الكلمة لها مدلول واسع، هو أن يتحرر الإنسان من الدنيا، حتى ولو ملكها عريضة، يتحرر من الجاه، من الانغماس في الملذات، من الجري وراء المال، من حب السلطان، من حب الترف، من الصفات التي تتنافى مع الفضيلة.

وخاتمة المطاف في هذه الوسائل: أنها تؤدي إلى الصفاء، فإذا ما حل الصفاء كان عند الإنسان استعداد كامل للمشاهدة، فيجود الله عليه بها ، إن شاء. **هذه المشاهدة** هي أسمى درجات المعرفة ، وهي الغاية النهاية التى يسعى وراءها ذوو الشعور المرهف، والفطر الملائكية، والشخصيات الربانية. فالتصوف إذن في حد ذاته معرفة ، وهي أسمى درجات المعرفة بعد النبوة، إنه مشاهدة، وهو طريقة إلى المشاهدة[١٣].

والطريق إلى المشاهدة – كما نقل حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه الخالد ((**إحياء علوم الدين**)) عن أهل التصوف –: هو ((**تقديم المجاهدة، ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى. ومهما حصل ذلك كان الله المتولي لقلب عبده، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم. وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة، وأشرق النور**

[١٣]. قضية التصوف: المنقذ من الضلال، ص ٤٥.

في القلب وانشرح الصدر، وانكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية))[١٤].

وإذا حصل هذا بالفعل – بعد التحقق بحقائق العلوم الشرعية – كانت المشاهدة. والمشاهدة التي هي الغاية التي ينشدها الصوفية، هي أيضا تحقيق واقعي للتعبير الذي ننطق به في كل آونة حيثما نقول: ((**أشهد أن لا إله إلا الله**)). فالشهادة هي غاية الصوفي، وهو إنما يسعى جاهدا إليها بشتى الوسائل؛ ليحقق بالفعل مضمون ما يلفظ به قولا، أو يقوله حروفا.

وإذا ظهرت ((**آثار هذه المشاهدة**)) على حياة الإنسان تحقق عنده صدق عبوديته وتوجهه إلى الله – تعالى –. وإذا تحقق هذا الصدق واقعيا تحققت محبته في ربه عز وجل. والمحبة ((**صراط الأولياء**)) على حد تعبير العارف بالله الشبلي، ولها علامات وشروط عند الصوفية لن تتحقق بدونها. **وشاهدها:** هو الحديث القدسي الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه[١٥]، عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : ((**ن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته:**

---

[١٤]. إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ١٨، في بيان الفرق بين الإلهام والتعلم .

[١٥]. صحيح البخاري – كتاب الرقاق باب التواضع – حديث: ٦١٤٧ .

كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته)).

ففي هذا الحديث الشريف يبدأ الله سبحانه وتعالى بالتوجيه في قوة إلى صفاء القلب وطهارة النية بالنسبة لأوليائه. وأولياؤه هم ﴿**الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾. ومن عاداهم فإنما يعادي المؤمن التقي. ونتيجة هذه العداوة إعلان الحرب التي لا هوادة فيها على كل من يحاول إيذاء ولي من أوليائه.

ثم يرسم الله تعالى الطريق إلى حبه. و**أول خطوة في هذا الطريق**: أداء ما افترضه علينا. ولن يتأتى حب الله سبحانه وتعالى دون **الشرط الأول**: شرط القرب منه وهو أداء الفرائض؛ إذ الحب دون أداء الفرائض زيف وكذب، بل إن أداء الفرائض شرط لازم وتعبير واقعي عن حسن الظن بالله تعالى؛ فلقد ترك قوم العمل وقالوا: نحن نحسن الظن بالله. وكذبوا كما يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : ((**لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل**)). ولا بد من أداء الفرائض؛ وإلا لما كان لمهملها إلى القرب من الله تعالى من سباقية. ومع أداء الفرائض — في وجوب القرب — الإكثار من النوافل، فإذا أكثر من النوافل أحبه الله تعالى: ((**وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**)). ويترتب

على حب الله تعالى للعبد: هذا الخيرُ الكثير الذي ذكره الله تعالى في الحديث القدسي.[١٦]

ولقد وفق العلامة المحقق أحمد بن محي الدين الحسني الجزائري[١٧] في التعبير عن مدى ((**تأثير المنهج الصوفي في إصلاح النفس**)) الذي كان سببا في محبة الله تعالى لعبده، وهي بدورها تكون عاملا فعالا لتنزل الرحمات والفيوضات الإلهية والأسرار الربانية على هذا المحبوب، فقال: ((**وإذا أحب الحق تعالى عبده صيَّره إكسيرا تنقلب بنظرة من نظراته الأعيانُ ويزهو بوجوده الكونُ والملوان؛ فالشخص إذا انجلى قلبه بالرياضات وكثرة الذكر وإدمان الفكر ساد السيادةَ المطلقة العامة وبدت عليه لوائحُ القبول بين الناس عامتهم وخاصتهم وأُلبسَ ثوبَ الجمال والبهاء والكمال؛ وذلك لصقالة قلبه وتعلقه في جميع أوقاته بربه وعلا شأنه وتنور كونه وبزغت شمسه ونما غرسه وذهب نحسه، فهنيئا له بما نال من منح الكبير المتعال؛ إذ قد انطبعت في قلبه لتنوُّرِه الأمورُ الغيبية والأشياء الملكوتية والعلوم الوهبية، وظهرت عليه آثار الألوهية**)).

---

[١٦]. انظر: لطائف المنن للعارف بالله ابن عطاء الله السكندري مع تعليقات الإمام عبد الحليم محمود، ص٦٢.

[١٧]. في كتابه: نثر الدر وبسطه في بيان كون العلم نقطة، ص٥٢.

ومن هنا كانت ((**المحبة هي الغاية القصوى من المقامات**))، والذروة العليا من الدرجات[١٨] التي يتسابق إليها الصوفية الربانيون الصادقون السائرون دوما على منهج قوله تعالى: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٧٩]. أي بالعلم والدراسة والتطبيق[١٩].

ويربط أسلافنا – رضوان الله عليهم – ربطا محكما بين محبة الله سبحانه واتباع رسول الله صلى الله عليه وسم؛ متناسقين في ذلك مع توجيه الله سبحانه ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة آل عمرن: ٣١]. وهذا الربط معناه: ((**الربط بين محبة الله تعالى والعمل**)). ومقدماتُ محبة الله تعالى – في توفيقه لعبده – ابتداء، هى العمل، وهو من نتائج محبة الله – تعالى – انتهاء[٢٠]؛ والعمل المطلوب في الإسلام هو العمل الصالح، وهو الموافق لما في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ نصا أو استنباطا.

---

[١٨]. قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في إحياء علوم الدين [٤/ ٢٥٧] : ((ان المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها)).

[١٩]. انظر: أصول الوصول لشيخنا الإمام سيدي الحبيب محمد زكي إبراهيم، ص٢٢٢.

[٢٠]. انظر: لطائف المنن للعارف بالله ابن عطاء الله السكندري مع تعليقات الإمام عبد الحليم محمود، ص٦٢.

قال الإمام الحسن البصري: قال أقوام على عهد نبيهم: والله يا محمد [صلى الله عليه وسلم] إنا لنحب ربنا، فأنزل الله عز وجل في ذلك قرآنا، فقال: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم**﴾، فجعل اتباع نبيه صلى الله عليه وسلم علَما لحبه، وكذَّب من خالفه[٢١]، ثم جعل على كل قول دليلا من عمل يصدِّقه، أو يكذِّبه، فإذا قال العبد قولا حسنا وعمل عملا حسنا رفع الله قوله بعمله، وإذا قال العبد قولا حسنا وعمل عملا سيئا رد الله القول على العمل؛ وذلك في كتابه: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾[٢٢] [سورة فاطر: ١٠].

فمن ((**صدق المحبة**)) اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في هديه وزهده وأخلاقه والتأسى به في الأمور كلها، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها؛ فإن الله عز وجل جعل سيدنا محمدا – عليه الصلاة والسلام – علما ودليلا وحجة على أمته. ومن صدق المحبة لله تعالى إيثار محبة الله عز وجل في جميع الأمور على نفسك وهواك، وأن تبدأ في الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك[٢٣].

---

[٢١]. وفي الأصل المطبوع [من خالفها] بضمير المؤنث؛ وما أثبتناه هو الصواب.

[٢٢]. أخرجه الإمام ابن المنذر بهذا اللفظ في كتاب تفسير القرآن، ج١، ص١٦٩. وأخرج نحوه الإمام الطبري في جامع البيان، ج٣، ص٢٧٢. وأورده الإمام السيوطي مختصرا في لباب النقول، ص٤١، وعزاه إلى ابن المنذر به.

[٢٣]. انظر : لطائف المنن للعارف بالله ابن عطاء الله السكندري مع تعليقات الإمام عبد الحليم محمود، ص٦٢.

وأحسن ما قيل في التعبير عن ((**المحبة عند السادة الصوفية**)) ما قاله الإمام الشبلي الصوفي: ((**المحبة اتباع أوامر المحبوب، وتجنب نواهيه، ومع ذلك فيجب الصدق والإخلاص، وكتمان الحال مع بذل الجهد في المجاهدة، ثم بعد ذلك لا توصل للمحبوب إلا بفضله**))، لقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [سورة آل عمران: ٧٣].

وهذا يعني أن ((**أساس المنهج عند الصوفية**)) هو الالتزام التام بالشريعة الإسلامية والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم على أحسن وجه، مع تفويض الأمر كله إليه؛ ظاهرا وباطنا، ولذلك قال العلامة المحقق الحبيب السيد أحمد بن محي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري[٢٤]: **إن السادة الصوفية الكمل[٢٥] – رضي الله عنهم – مانالوا الذي نالوه إلا بالمحافظة على الحدود الإلهية المحافظة التامة مع صفاء القلب وتعلقه بالرب، وجمع الهمة[٢٦]، وصدق النية، وصفاء الطوية، والمثابرة على الخدمة، ودوام الحضور مع الحق تعالى، ومراقبته ونهاية المجاهدة؛ طلبا للتقرب إليه والتوصل لرضاه، وجميل مشاهدته، ومواددته، ومواصلته.** يقول قائلهم:

---

[٢٤]. في كتابه: نثر الدر وبسطته، ص٥٧.

[٢٥]. يعني السادة الصوفية.

[٢٦]. والهمة عند الصوفية – كما قال الإمام عبد الحليم محمود – هي التشمير والجد في العبادة.

من فاته الوصل منك حظه الندم • ومن تكن همه تسمو به الهمم

وهذا دائما ما يجول بخواطر هؤلاء الكمل؛ لتمام تيقظهم، وذهاب نومهم، وزوال غفلتهم، وتمام خدمتهم لسيدهم ؛ بغية الوصول إلى رضاه ومحبته، قال الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – : ((**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك**))[٢٧]، وقال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩].

وهذا يعني أن **المجاهدة** بوسائلها المشروعة سبيل محقق للوصول إلى ((**مقام الإحسان**))، وهو المقام الذي يحقق للعبد المحسن المقبل على ربه بكليته: كمالَ الحضور مع الله عز وجل، ومراقبته الجامعة لخشيته، ومحبته ومعرفته، والإنابة إليه، والإخلاص له، وجميع مقامات الإيمان[٢٨].

ثمرة مقام المحبة :

وإذا وصل العبد إلى هذا المقام أقبل الله عليه بعطفه ورحمته —كما أشار إليه العلامة ابن قيم الجوزية في كتابه طريق الهجرتين[٢٩]–، ويكون محبوبا عنده عز وجل، فإذا أحبه استنارت جهاته، وأشرقت ساحاته،

---

[٢٧]. أخرجه الإمام الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأقره الإمام النووي في كتاب الأربعين، رقم الحديث (١٩).

[٢٨]. انظر: مدارج السالكين لابن القيم، ج٢ ص٤٣٠.

[٢٩]. انظر : طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص٣٣١.

وتنورت ظلماته، وظهر عليه آثار إقباله من بهجة الجلال وآثار الجمال، وتوجه إليه أهل الملأ الأعلى بالمحبة والموالاة؛ لأنهم تبع لمولاهم، فإذا أحب عبدا أحبوه، وإذا والى واليا والوه، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه كان يقول: ((**إذا أحب الله العبد نادى: يا جبريل، إني أحب فلانا، فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يحبه أهل الأرض، فيوضع له القبول بينهم**))[٣٠]، ويجعل الله قلوب أوليائه تفد إليه بالود والمحبة والرحمة، وناهيك بمن يتوجه إليه مالك الملك ذو الجلال والإكرام بمحبته، ويقبل عليه بأنواع كرامته، ويلحظ الملأ الأعلى وأهل الأرض بالتبجيل والتكريم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم؛ **وهذا هو الإنسان المنتظر لإنقاذنا مما نحن فيه.**

المنهج الصوفي ودوره في إصلاح آليات التعامل مع كتاب الله تعالى

ويتضح مما سبق أن ((**التصوف هو المنهج الرباني الفريد في الإصلاح**))، إذ أن سائر الأعمال لا بد من أن توزن بميزانه، وأن عدم القدرة على الانسجام مع متطلباته – من حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم، وغيرها من الوسائل

[٣٠]. أخرجه البخاري (٤٦١/١٠) ومسلم ٢٦٧٥.

التي تمكن السائرين إلى الله تعالى من اقتلاع أشواك الرغائب والشهوات، وأشواك المطامع والمطامح، وأشواك المخاوف والهواجس[٣١]، التي تكدر صفاء قلوبهم – يكون الفشل محققا. والعكس بالعكس؛ ومن هنا تعرف سر قول النبي صلى الله عليه وسلم بصفة أوضح من ذي قبل: ((**إن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب**))[٣٢]. وهذا يعني أن **مجال التخصص لعلم التصوف هو القلوب وأن وظيفته تصفية النفوس من الرذائل وتزكيتها بالفضائل**؛ وذلك حتى تكون أوعية للعلوم الربانية والمعارف الإلهية، وهو في الوقت نفسه يعطينا انطباعا عاما على أن القلب إذا لم ينصلح بناؤه على الوجه الذي يريده فاطره – سبحانه وتعالى –، فإن أي بناء بعد ذلك يكون عرضة للانهيار كما نشاهده اليوم في العالم الغربي المادي.

التصوف مطلب ضروري لفقه كتاب الله تعالى وتفسيره :

وعلى هذا الأساس جعل العلماء الربانيون: **التصوف شرطا أساسيا على من أراد أن يتصدى لتفسير كتاب الله تعالى**، مع التنبيه على أن هذه الأدوات التفسيرية والتأويلية مهما بلغت بالمتخصصين في الظاهر إلى القمة، فإنها لن يتم توظيفها على الوجه المطلوب إلا بعد تصفية الضمائر من الرعونات التي تمنع نور الله تعالى أن تنفذ إلى القلوب التي

---

[٣١]. اقرأ : في ظلال القرآن للمفكر الإسلامي سيد قطب، ج١، ص٣٩.

[٣٢]. سبق تخريجه.

هي أوعية للعلوم والمعارف، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٦]. والكبرياء من أكبر الأمراض القلبية التي تعادي الحق وتحاربه.

ومن أروع العبارات التي تعرب عن واقع الإنسان المحجوب عن نور الله تعالى، ما قاله العالم الرباني قطب العارفين ومرشد السالكين ابن عطاء الله السكندري (المتوفى سنة ٧٠٩هـ) في كتابه ((**الحكم**)) الذي يعد من أبرز الدساتير الأخلاقية في عالم التربية والتعليم:

- **((كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته؟**
- **أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ؟**
- **أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟**
- **أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته ؟!))**[٣٣].

وهذا تصوير بليغ عن مدى استحالة الجمع بين الضدين، كاجتماع الحركة والسكون، والنور والظلمة، والهدى والضلال، والخير والشر. وفي هذا يقول الإمام أبو عبد الله النفري الرندي أحد شراح الحكم العطائية (المتوفى سنة ٧٩٢هـ) في سبيل تجلية هذه الحقائق[٣٤]: ((وهذه الأشياء التي ذكرها المؤلف – رحمه الله تعالى – أضداد لا

---

[٣٣]. الحكم العطائية، ص١٠٦.

[٣٤]. في كتابه: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، ج١، ص٨٨.

تجتمع؛ فإن إشراق القلب بنور الإيمان واليقين مضاد للظلمة التي استولت عليه من ركونه إلى الأغيار والأكوان واعتماده عليها. والمسير إلى الله تعالى بقطع عقبات النفس مضادٌ للاعتقال في حبس الهوى والشهوات. ودخول حضرة الله المقتضية لطهارة الداخل ونزاهته مضادٌ لما هو عليه من جنابة غفلاته التي مقتضاها الإقصاء والإبعاد. وفهم دقائق الأسرار المستفاد من التقوى مضاد للإصرار على المعاصي والهفوات؛ وإليه الإشارة بقوله – عز من قائل: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢]. ومعنى هذه الأية – كما قال الإمام القرطبي[٣٥] – : ((وعد من الله تعالى بأن من اتقاه علَّمه، أي يجعل في قلبه نورا يفهم به ما يُلْقَى إليه؛ وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقانا، أي: فيصلا يفصل به بين الحق والباطل، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾)) [سورة الأنفال : ٢٩].

و((**التقوى**)) – كما نقله شيخ الإسلام الإمام الحبيب عبد الله بن علوي الحداد الحسيني عن العلماء الأجلاء رضي الله عنهم – عبارة عن امتثال أوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه؛ ظاهرا وباطنا، مع استشعار التعظيم لله، والهيبة والخشية والرهبة من الله[٣٦]. فلا يراك إلا وأنت في حالة ترضيه عنك.

---

٣٥. في الجامع لأحكام القرآن، ج٣، ص٤٠٢.

٣٦. انظر: النصائح الدينية والوصايا الإيمانية، ص٣٤.

وهي صفة جامعة لأسرار الدين كله، من إسلام وإيمان وإحسان، وهي أركان وأصول، من استوفاها فقد اكتمل دينه؛ فقد جاء سيدنا جبريل عليه السلام ذات يوم إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم معلما للناس هذه الأصول والأركان على أسلوب الحوار[٣٧]؛ وذلك لترسيخها في العقول على اختلاف درجاتها؛ بغية بناء الأعمال الفرعية عليها بناء راسخا لا يتزعزع.

وقد ورد عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ((**بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، ووضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم –: الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم –، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ، إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ:**

٣٧. وهو من أرقى الطرق التربوية الفعالة في زرع المفاهيم وتنميتها والإقناع الذاتي لدى المخالفين، مما يدل على عظمة الإسلام مادة وأسلوبا، شرعة ومنهاجا، علما ومعرفة، ظاهرا وباطنا، جسما وروحا.

فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ))[٣٨].

والسائل في هذا الحديث هو سيدنا جبريل عليه السلام جاء ليلقن الأمة أمور دينهم. و((**مجموع هذه الأركان ولوازمها، هو التقوى**))، إذ ما من مقام من المقامات في الإسلام إلا والتقوى مدخل إليه، ومن هنا تظهر جامعيتها، وسر تكرارها في القرآن الكريم بصيغ مختلفة على طول المشوار في الإصلاح والبناء.

وتتفاوت – صعودا وهبوطا – ((**درجات التقوى**)) من واحد إلى آخر بحسب تفاوت استجابته لمطالب الحقائق الثلاث الواردة في هذا الحديث؛ إذ المؤمن الذي يؤدي عبادته بما يقتضيه مقام الإحسان والمشاهدة يكون في المرتبة العليا من التقوى، وتنزل عنها بحسب ضعف همته في خدمة الباري سبحانه وتعالى. وبقدر تقواك تكون محبتك في الله عز وجل. وبقدر محبتك تتوالى عليك الفيوضات الربانية والفتوحات الإلهية.

ومن هذا المنطلق جعل العلماء الربانيون — وفي مقدمتهم أهل الحق من علماء التصوف – قوله تعالى ﴿اتقوا الله ويعلمكم الله﴾ شعارا لهم وأساسا في التعامل مع كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله

[٣٨]. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه،ج١، ص٣٧، رقم الحديث:٨.

عليه وسلم وسائر معاملاتهم مع الله تعالى؛ لأنه هو الضمان الأكيد والحل الوحيد لعلاج أي مشكلة في الحياة.

والعلم الذي وعد الله تعالى أهل التقوى بتعليمهم إياه في هذه الآية هو ((**العلم اللدني**))[٣٩]، وهو العلم الوهبي الذي هو ثمرة التقوى والاستقامة[٤٠]. وهذا الإنعام ليس إلا تفضلا منه تعالى وتكرما، وليس مسببا عن التقوى بصفة مبرمجة؛ إذ هي مجرد طريق موصل إلى الكرم، لا سبب فيه، ولذلك قالوا: ((**جلَّ حكمُ الأزلِ أن يضاف إلى العلل**)) **للدلالة على أن ما وصل إلى العبد الصادق مع ربه من فيوضات ربانية وكشوفات إلهية ليست عن استحقاق**. وهذا هو السر في إدخال الواو في جواب الأمر[٤١].

سبيل التحقق من العلم اللدني :

وفي سبيل التحقق من كون الوارد علما لدنيا من عند الله تعالى، يتحتم عليه إشهاد عدلين، وهما:

الأول: القرآن الكريم

الثاني: السنة النبوية

---

[٣٩]. انظر : البحر المديد، ج١، ص٢٨٠.

[٤٠]. انظر : الفيوضات الربانية، ص١٥.

[٤١]. انظر: البحر المديد: ج١، ص٢٨٠.

فإن كان موافقا لهما، قبل، وإلا رد. وفي هذا الصدد يقول الإمام أبو القاسم الجنيد سيد الطائفة الصوفية: إن النكتة لتقع في قلبي فلا أقبلها إلا بشهادة عدلين: الكتاب والسنة[٤٢].

وهذا يعني أن ((**الإلهام في التصوف الحق**)) لا يلتفت إليه إلا إذا كان مبنيا على الكتاب والسنة، وأن هذا المنهج هو المعتمد عليه منذ فجر الإسلام إلى يومنا هذا، ولم يشذ عنه إلا أدعياء التصوف وأعداؤه.

بالإضافة إلى ذلك أن هذا الاحتياط البالغ في التعامل مع الخواطر والإلهامات يعد من لوازم التقوى، الذي تقلده الصوفية الحق، واتخذوه سبيلا إلى عالم الإحسان والمشاهدة، وهو طريق الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين أجمعين.

وإذا كان ((**مقام التقوى**)) **هو الأصل الأصيل للبناء في القرآن الكريم والسنة النبوية**، فإن رجال التصوف جعلوه قطب الرحى لسائر المقامات في التربية والسلوك؛ وهو في الوقت نفسه لن يتأتى على أرض الواقع إلا بعد فهم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، والسير على منهاجهما قلبا وقالبا.

وهذا ما نفهمه من مقتضى قول سيد الصوفية أبي القاسم الجنيد: ((من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يقتدى به

[٤٢] انظر : المرجع السابق : ج١، ٢٨٦.

في هذا الأمر[٤٣]؛ لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة))[٤٤]؛ وذلك أن الاقتداء في التصوف – بطبيعة الحال عند السادة الصوفية –، لا يصلح بحال من الأحوال إلا إذا صدر من عالم رباني قد تحقق بكتاب الله على منهاج المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ علما وعملا وحالا. والتصوف في حد ذاته هو المنهج العملي المتقن النابع من الإخلاص، وهو حرب على جميع النظريات المجردة التي ينشدها دوما الفلاسفة والمعطلون؛ لأن شعار السادة الصوفية قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ((إن الله تبارك وتعالى يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه))[٤٥]؛ إتقانا يتجلى فيه كمال الحضور مع الله تعالى ومراقبته الجامعة؛ بناء على المفهوم النبوي الذي أشار إليه حديث الإحسان الذي أمرنا من خلاله أن نعبد الله حق عبادته، ولا نلتفت إلى من سواه، فقال صلى الله عليه وسلم عندما عرف الإحسان : ((**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**)).

وعلى هذا المنهج سار هؤلاء القوم في الآفاق سيرا معظما ومكرما، وسادوا العالم ردَحا من الزمان، وأسلم طوعا على أيديهم ملوك وسلاطين كما في شرقي آسيا وغيرها، وأصبحوا دعاة

---

[٤٣]. أي في التصوف.

[٤٤]. انظر : الرسالة القشيرية، ص٨٠.

[٤٥]. أخرجه الإمام البيهقي في شعب الإيمان، ج٤، ص٣٣٤، رقم الحديث: (٥٣١٢).

مخلصين إلى الإسلام؛ فانتشر الدين الحنيف في مشارق الأرض ومغاربها ببركاتهم وحكمتهم البالغة في الدعوة والتوعية، ولا تزال أنوارهم – إلى يومنا هذا – تنير دروب السائرين والتائهين إلى رحاب الله تعالى.

المنهج الصوفي هو عين المنهج القرآني والنبوي الأصيل

ونفهم مما سبق بأن التصوف في الإسلام من العلوم المستنبطة من الكتاب والسنة كسائر العلوم الإسلامية الأخرى، مع التسليم بأنه لم يرد في القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة على وجه التصريح اسم ((التصوف))، إلا أنه ورد فيهما ضمنا من خلال مقاماته وأحواله كـ ((**الشكر، والتقوى، والذكر، والصبر، والتوحيد، ومحبة الله، والتوكل، والمراقبة، والخوف والرجاء، والتوبة، والإخلاص**))[٤٦] **وغيرها**؛ وهي أصول للتصوف ووسائل مجربة قادرة – بإذن الله تعالى – على تنوير القلوب وجعلها محلا للفتوحات الربانية؛ ومن هنا جعله علماء التفسير من أهل السنة والجماعة **البوابة الرئيسة لفهم كتاب الله تعالى** بعد استيفاء الشروط المطلوبة في قانون التفسير والتأويل، وإن اختلفت عباراتهم في تسمية هذا العلم إلا أن المسمى واحد.

---

[٤٦]. جاء هذا الترتيب على هذا المنوال حسب وروده في القرآن الكريم كما صرح به الإمام ابن جزي الكلبي في مقدمة تفسيره : (التسهيل لعلوم التنزيل : ٨).

ضرورة ممارسة التصوف العملي واتخاذه منهجا للإصلاح الروحي

وفي الحقيقة أن المقامات التي ذكرها القرآن والسنة، لا توصل إلى المطلوب إلا بتفعيلها على وجه الدقة، ولن يتأتى هذا الأمر إلا بممارسة التصوف العملي الذي يهدف – في المقام الأول — إلى تزكية النفس وتطهيرها من الرعونات وسائر الظلمات، وقرآننا الكريم قد جعل هذا الأمر العظيم من مقاصده، بل قدمه على مسألة التعلم والتعليم كما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الجمعة: ٢]؛ إشارة منه سبحانه وتعالى إلى **أن الصفاء القلبي مفتاح لمعرفة أسرار كتابه وعنصر أساسي للضبط العلمي والفهم السليم والعمل الصالح**، فلا يليق بطالب الآخرة أن يغفل هذا ؛ مع العلم بأن المحطة النهائية التي يسعى إليها المنهج الصوفي بوسيلة الإصلاح النفسي، هي المشاهدة . وهذا المقام لن يتحقق بأمان وفعالية تامة، إلا بمرشد ربانى وارث علم الكتاب والسنة، موثوق به في علمه وسنده، وفقهه وفهمه، وعقيدته وشريعته، وسلوكه وحاله؛ وظيفتُه إرشاد هؤلاء السالكين وتعليمهم كيفية الوصول كما تلقاه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أستاذه سيدنا جبريل عليه السلام، وهو – صلى الله عليه وسلم – كان بدوره يعلم أصحابه – رضى الله عنهم – ، ويلقنهم هذه الكيفية ؛ وهكذا إلى أن جاء جيل

جديد يتلقى هذا العلم الموروث عن سلفه الصالح الوارث لهذا العلم الربانى، عن منتهاه.

ثم تتلاشى آثار أنوار النبوة كلما بعد العهد عنها، إلى أن ظهرت في العالم الإسلامى انحرافات كثيرة فى الفكر والسلوك؛ نتيجةً لعدم وجود الأهلية والجدارة فى كثير ممن يباشر وظيفة الإرشاد والتوجيه ؛ واذا اشتكى كثير من السلف الصالح من سلبيات هؤلاء القوم، فما بال أمثال أولئك الذين يعيشون فى عصر تفنن فيه أعداء الإسلام فى وضع العراقيل والعقبات أمام الشعوب الإسلامية للحيلولة دون الوصول إلى مبتغاهم.

ومن هنا أصبح من الضرورة اتخاذ مرشد ربانى يضمن سلامة السير إلى الله جل جلاله، وتدر علينا بالفوائد الثمينة التي يمكن من خلالها أن نستمد منها في مواصلة ومتابعة مهمتنا الإصلاحية والتوجيهية.

ضرورة اتباع المرشد الرباني في السير إلى الله تعالى

لقد توصل الشيخ السيد سعيد حوى العالم الرباني من خلال تجاربه وخبراته ودراساته الواسعة فى مجال الإصلاح الروحي إلى إحراز سبع فوائد أساسية فى هذا الجانب[٤٧]:

الأولى: إن الشيخ البصير فى الأمور يختصر لك الطريق؛ فبدلا من أن تتعب فى الطريق – أى طريق – سواء كان طريق تحصيل علم، أو طريق

[٤٧]. راجع : تربيتنا الروحية، ص ١٩٨-١٩٩.

استدلال على صلاح القلب، أو طريق تخلص من مرض، فإنه يختصر لك.

الثانية: إن الشيخ الكامل يجنبك الخطأ فى الفهم، أو الخطأ فى السلوك، أو الخطأ فى التصورات التى يمكن أن تنشأ عن سير الإنسان نفسه.

الثالثة: إن الشيخ الربانى من خلال صحبته تأخذ منه حالا، وتأخذ منه سمت العلماء وأدبهم، ونور العلم، وتنوير القلب.

الرابعة : إن مجرد قبول الإنسان أن يأخذ العلم أو التربية عن أهلها يحرزه من كثير من الأمراض، كمرض الغرور، أو العنجهية، أو الكبر.

الخامسة : وكل حالة يفترض على الإنسان تحصيل شئ ولا يستطيع تحصيله إلا من جهة ما، فإن الأخذ عن هذه الجهة يعتبر فريضة فى حقه من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

السادسة : وإذا كان الشيخ صالحا وداعيا إلى هدى، فإن الانتفاع به فى الدنيا والآخرة تدل عليه النصوص.

السابعة : والتجمع حول شيخ ، والمشاركة فى حلقات العلم والذكر، والتآخى الخاص فى هذه الأجواء، تترتب عليه مصالح كثيرة فى الدنيا والآخرة؛ وكل ذلك غيض من فيض فى محل الشيخ ومكانه.

وأخيرا أقول: لو أن متنا الإسلامية جعلت من الإصلاح النفسي أساسا لنظام الإسلام وحكمه، لظهر لها من سلطان الله وحمايته ما يكلؤها من كل سوء ومكروه وتخلف، ولسطع من هذا النظام الإلهي نور

يطفئ بريق سائر الأنظمة الأخرى، على الرغم من كثرة دعاتها وقوة المساندين لها والمدافعين عنها[٤٨].

ونفهم مما تقدم أن إصلاح النفس وتزكيتها أساس كل إصلاح وبناء، وخاصة بناء العلم والمعرفة، إذ فيه سر التقدم والنهضة، ولن تنهض أمتنا الإسلامية إلا بالرجوع إلى التحقق بعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على المنهج الرباني الذي رسمه لنا سلفنا الصالح رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وأكتفي بهذا القدر، فإن كان في هذا البحث المتواضع خير يذكر فلله الحمد والشكر أولا وآخرا، وإن كان العكس، فأسأل الله تعالى مغفرته ورحمته، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله تعالى على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين !

الخاتمة

وبعد الجولة القصيرة في هذا البحث المتواضع يطيب لي أن ألخص لكم أهم نتائج الأفكار في النقاط التالية:

- أن المنهج الصوفي الرباني الذي رسمه علماء أهل السنة والجماعة في الإصلاح والبناء، يعد أم الوسائل الإصلاحية التي يناشد بها القرآن الكريم والسنة النبوية على طول خط السير وعرضه؛ إذ كل

[٤٨]. اقرأ : كتاب ((التعرف على الذات هو الطريق المعبد إلى الإسلام)) لشيخنا العلامة الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

المناهج الإصلاحية في جميع أنظمة الحياة القائمة على وجه الأرض، من اجتماعية وسياسية وتربوية وتعليمية واقتصادية وإعلامية وغيرها، توزن بميزانه، فلا حاجة بنا من إعادة المحاولات المتكررة؛ لإيجاد حلول مستوردة لمشكلاتنا من الأمم التي ليست لها صلة متصلة السند بأخبار السماء، ومهما سعينا لأجل ذلك فإن التوفيق لن يكون حليفنا، بل يكون مردوده علينا تضييع الأوقات وتبديد الطاقات التي يمكن أن ندخرها لأولادنا وشبابنا، يستفيدون منها في تنمية مهاراتهم وتطوير حياتهم على الوجه الذي يحقق لنا ((**مرضاة الله عز وجل**)).

- وهذه الأمنية الغالية لن تتأتى على أرض الواقع إلا بالعودة إلى دراسة كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم؛ مع إصلاح آليات التعامل معهما بالتصوف الرباني العملي الذي يهدف إلى تزكية الأنفس من الرعونات وسائر الأمراض الباطنة كالكبر والحقد والحسد والرياء وغيرها من العلل التي تحجب الإنسان من التعرف على ذاته ومهمته التي أنيط بها في هذه الحياة.
- وأنا على ثقة تامة بأن إمكانياتنا المحدودة في مختلف المجالات، إذا وظفناها بإتقان وإخلاص مع صدق التوجه والعبودية لله تعالى، فستكون لها ثمرة يتولد منها نور يبدد الظلمات التي تعرقل مسيرتنا نحو التقدم إلى الأمام، ويهدينا إلى الصراط المستقيم.

المصادر والمراجع

الإصلاح الإداري المنظور الإسلامي والمعاصر: للأستاذ الدكتور عبد الرحمن الضحيان، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

التراجع الحضاري في العالم الإسلامي وطريق التغلب عليه: للأستاذ الدكتور علي عبد الحليم محمود الأزهري، دار الوفاء، المنصورة، جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

تربيتنا الروحية: للشيخ سعيد حوى رحمه الله تعالى، الطبعة الخامسة، دار السلام، القاهرة، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

التزكية ضرورتها – وسائلها – موانعها : للأستاذ نبيل حامد المعاز، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م.

التسهيل لعلوم التنزيل : للإمام أبي القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي المتوفى سنة ٧٤١هـ، الدار العربية للكتاب، ليبيا.

التعرف على الذات هو الطريق المعبد إلى الإسلام: للأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٨م.

جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ضبط وتعليق الأستاذ محمود شاكر، دار

إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م.

الجامع لأحكام القرآن: للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ، الطبعة الأولى، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

رجال الفكر والدعوة في الإسلام: للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، تحقيق الأستاذ مصطفى أبي سليمان الندوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م.

الرسالة القشيرية: للإمام أبي القاسم القشيري النيسابوري الشافعي المتوفى سنة ٤٦٥هـ، تحقيق العارف بالله الإمام عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف، دار الشعب، القاهرة، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م.

السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي: للأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.

شعب الإيمان : للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨هـ،الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.

صحيح البخاري: للإمام عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى سنة ٢٥٦م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.

صحيح مسلم : للإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى المتوفى سنة ٢٦١هـ، دار إحياء الكتب العربية فيصل عيسى البابى الحلبى، القاهرة.

في ظلال القرآن: للمفكر الإسلامي الأستاذ الشهيد سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة ٣٣، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

كتاب الغرباء من المؤمنين : للعلامة المحدث أبي بكر محمد بن الحسين الآجري المتوفى سنة ٣٦٠هـ، تحقيق الأستاذ رمضان أيوب، دار البشائر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

كتاب تفسير القرآن : للإمام أبي بكر بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري المتوفى سنة ٣١٨هـ، تحقيق الدكتور سعد بن محمد السعد، دار المآثر، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢.

لباب النقول في أسباب النزول : للإمام جلال الدين السيوطي ، تعليق الأستاذ محمد علي القطب، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.

المسند: للإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ١٢٤١هـ، تحقيق الأستاذ شعيب الأرنؤوط والأستاذ إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م.

منهج القرآن في إصلاح المجتمع: للأستاذ الدكتور محمد السيد يوسف، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢م.

نثر الدر وبسطه في بيان كون العلم نقطة: للعلامة المحقق أحمد بن محي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري المتوفى سنة ١٣٢٠هـ، تحقيق الأستاذ أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤.